٥

التجديد فى الأوزان والقوافى

سبق أن تحدثنا فى كتاب « العصر الإسلامى » عن مدى ما أثَّر به الغناء المستحدث حينذاك فى موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نَظْم المقطوعات القصيرة فى الغزل وأخذ الشعراء يصفُّون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة: نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة. وقد مضى شعراء الغزل يَعْدلون غالباً عن النظم فى الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم فى الأوزان الخفيفة البسيطة، فإن ألموا بالأوزان الأولى جزَّءوها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الخروق أو بعبارة أخرى من الزحافات، إكثارا نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتث وصُنْع بعض المقطوعات فيه.

وانتقلت موجة هذا الغناء فى أواخر العصر الأموى إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسى الأول بلغت فى مدن العراق كلَّ ما كان يُنْتَظَرُ لها من حدة وقوة، فمن جهة صُفِّيَتْ لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة على نحو ما مرَّ بنا فى أوائل هذا الفصل، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، فإذا القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمى: شعر المديح والرثاء، بينما تشيع المقطَّعات فى الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم. ومضى الشعراء ينظمون — على هدى الشعراء الأمويين — فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفى وزن المجتث الذى اقترحه الوليد بن يزيد، ومِنْ خير مَنْ يمثِّل ذلك مطيع بن إياس الكوفى فإننا حين نتصفح الشعر المبثوث فى ترجمته بكتاب الأغانى نجد كثرته من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكامل والرمل أو من الهزج أو من المجتث على شاكلة قوله[1]:

ويلىَ ممَّن جَفَانى وحبُّه قد بَرانى

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٩٢.

وَطيْفُـــهُ يلقـــانى وشَخْصُـــهُ غيرُ دانى
أغرُّ كالبدر تَغْشَى بحسنـــه العَيْنانِ

ولم يلبث الشاعر العباسى أن حاول النفوذ إلى أوزان جديدة ، وإذا هو يكتشف وزنين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض ، وهما وزنا المضارع والمقتضب ، أما المضارع فأجزاؤه مفاعيلن فاع لاتن مفاعلين ، ودائمًا تُحْذَفُ فيه التفعيلة الأخيرة ، ومنه مقطوعة أبى العتاهية [١] :

أيا عُتْبَ ما يضرُّك أن تطلقى صِفادى[٢]

وأما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعلن ، وتُحْذَفُ منه التفعيلة الأخيرة أيضًا ، كما يلقانا عند أبى نواس فى مقطوعته [٣] :

حاملُ الهَوَى تَعِبُ يستخفُّـــه الطَّرَبُ
إن بكى يحقُّ له ليس ما به لَعِبُ

وواضح أن هذا الوزن أكمل نغماً وإيقاعاً من سابقه ، ولعل ذلك هو الذى جعله يشيع ويتداوله الشعراء ، بينما كادوا يهملون المضارع . واكتشف الشـــاعر العباسى أيضًا وزن المتدارك أو الخبب ، ويقال إن الخليل لم يسجله فى عروضه ، إنما سجله تلميذه الأخفش [٤] ، ولكنه إن كان لم يقترح له اسما فإنه عرفه ونظم منه أشعارًا مختلفة [٥] ، من مثل :

أبكيتَ على طَلَلٍ طَرَباً فشَجاك وأحزنك الطَّلَلُ

ومثل :

لينس المرءُ الحامى أنفاً مثلَ المرء الضَّيْمِ الراضى [٦]

---

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص١٣٢ .
(٢) الصفاد : القيد .
(٣) الديوان ص ٣١٦ .
(٤) شرح الدمنهورى على الكافية (طبع مكتبة محمود توفيق) ص ٣٩ .
(٥) إنباه الرواة ١/٣٤٢ وانظر مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ص ٣٢ .
(٦) الحامى أنفا : العزيز الأبى . الضيم : الذليل .

وبذلك وضع للشاعر العباسى منه نماذج كى يحاكيها ، وكان أولَ مَن بادر إلى محاكاته — فيما نظن — أبو العتاهية فله على نسق مقطوعته الثانية بيتان نظمهما فى بعض القضاة على هذه الشاكلة(١) :

همُّ القاضى بَيْتٌ يُطْرِبْ قال القاضى لما طولبْ
ما فى الدنيا إلا مُذْنِبْ هذا عُذْر القاضى واقلبْ

والحق أن الخليل اكتشف للشعراء أوزانًا جديدة كثيرة لم يستخدمها أسلافهم ، وذلك أنه — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — استضاء بفكرة التباديل والتوافيق الرياضية فى وضع عروض الشعر ، إذ جعل أوزانه تدور فى خمس دوائر أو بعبارة أدق تدور أجزاؤها من الأسباب والأوتاد ، فإذا هو يحصى الأوزان التى استخدمها العرب واضعًا لها ألقابها ويحصى أو يستنبط أوزانًا أخرى مهملة لم يستخدموها فى أشعارهم ، كى ينفذ منها الشاعر العباسى إلى ما يريد من تجديد فى أوزان الشعر وبحوره . وكان من أوائل من استغلوا صنيعه تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمَيْدَع البصرى ، وفيه يقول أبو الفرج : « أخذ العروض عن الخليل بن أحمد ، فكان مقدَّما فيه وانقطع إلى آل سليمان بن على ، وأدَّب أولادهم ، وكان يمدحهم كثيراً . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبة فى شعره ، ثم أخذ ذلك عنه ونَحا نحوه فية رُزَيْن العَرُوضى ، فأتى فيه ببدائع جَمَّة ، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس »(٢) . ولم يصلنا من شعره سوى قصيدة واحدة احتفظ بها ياقوت فى معجمه ، وهى فى مديح الحسن بن سهل وزير المأمون ، وأولها :

قَرَّبوا جمالهمُ للرحيل غُدْوَةً أحبَّتك الأَقربوك
خَلَّفوك ثم مضوا مدلجين مفرداً بهمِّك ما ودَّعوك(٣)

وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناها تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة ، هو عكس وزن المنسرح ، فوزنها مفعولات مستفعلن فاعلن . وربما كان أهم شاعر

---

(١) المسعودى ٣/٣٦٠ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٦٦/١٦٠ .
(٣) مدلجين : سائرين ليلا .

نابه عُنى بصنع أشعار على تلك الأوزان المهملة ، هو أبو العتاهية ، فقد روى له ابن قتيبة قوله (١) :

للمنون دائراتٌ يُدِرْن صَرْفَها هُنَّ ينْتَقِيننا واحداً فواحدا

وقوله :

عُتْبَ ما للخيال خَبَّرينى ومالى لا أراه أتانى زائرًا مُذْ ليالى

ووزن البيت الأول فاعلن مستفعلن مرتين فهو عكس البسيط بينما وزن البيت الثانى فاعلن فاعلاتن مرتين وهو عكس وزن المديد . والوزنان جميعًا من الأوزان المهملة التى تستنبط من دوائر الخليل . على أنه ينبغى أن نعرف أن هذه الأوزان المهملة التى استخدمها أبو العتاهية ورزين وابن السميدع لم تشع على ألسنة العباسيين ، وكأنهم أحسوا نقص أنغامها وإيقاعاتها بالقياس إلى الأوزان المستعملة . وينسب إلى هذا العصر وزن شعبى هو وزن « المواليا » ويقال إن سبب ظهوره أن الرشيد منع الناس من رثاء البرامكة ، فلم يجرءوا على رثائهم ، ولكن جارية لجعفر بن يحيى البرمكى بكته فى أشعار نظمتها من هذا الوزن بالعامية ، وكانت تختمها بكلمة « ياموالية » غير أن هذه القصة — فيما يظهر — أسطورة إذ لم يثبت أن الرشيد منع الشعراء من رثاء البرامكة ، وفى كتب الأدب من مراثيهم أشعار كثيرة . ولعل مما ينقضها نقضًا أن ابن تغرى بردى أنشد مواليا للعتّابى شاعر البرامكة والرشيد على هذا النمط (٢) :

يا ساقياً خُصَّنى بما تهواهُ لا تمزج أقداحى رعاك الله
دَعْها صِرْفاً فإننى أمزجها إذ أشربها بذكر من أهواه

وكأن المواليا لم تبدأ عامية ملحونة ، وإنما بدأت فصيحة ، ثم تحولت إلى العامية ، إذ ازورَّ عنها شعراء الفصحى كما ازورُّوا عن الأوزان المهملة السابقة

وعلى نحو ما جدّدوا — لهذا العصر — فى الأوزان جدّدوا فى القوافى مستحدثين ما سموه باسم المزدوج والمسمَّطات ، أما المزدوج فالقافية فيه لا تطرد فى الأبيات ، بل تختلف من بيت إلى بيت ، بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وعادة تُنْظم من

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٦ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢ / ١٨٦

بحر الرجز . وتُنْسَبُ إلى الوليد بن يزيد منظومة من هذا الطراز صاغ فيها خطبة من خطب يوم الجمعة[١] ، وإذا صح ذلك كان هو أول من استحدثه ، ثم تلاه العباسيون وفى مقدمتهم بشار ، إذ نعته الجاحظ بأنه صاحب مزدوج[٢] ، وإن كنا لا نجد منه أمثلة فيما طُبع من ديوانه . وبمجرد أن ظهر الشعر التعليمى ازدهر هذا الضرب الجديد ، إذ صاغ أبان بن عبد الحميد فيه كل ما نظمه من قصص وتاريخ وعلم ودين ، وكذلك صنع محمد بن إبراهيم الفزارى فى مزدوجته الفلكية ، وإن جعل وحدتها ثلاثة شطور لا شطرين . وقد نظم أبو العتاهية من هذا النمط الجديد مزدوجته « ذات الأمثال » وسبق أن اقتبسنا منها أبياتًا . ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقْوَى على النظم فى المزدوج من بشر بن المعتمر وإنه كان أقدر فيه من أبان بن عبد الحميد[٣] ، وقد روى له فى الحيوان مزدوجة طويلة ، فى تفضيل على بن أبى طالب والرد على الخوارج[٤] . وللرقاشى مزدوجة طويلة فى المجون والخلاعة[٥] وكذلك لبكر بن خارجة مزدوجة فى أعياد النصارى وشرائعهم وأديرتهم[٦] . ونرى الفرس حين يعودون إلى لغتهم ويحدثون نهضتهم الأدبية يستخدمون هذا الضرب من الشعر فى قصصهم متخذين له اسما جديداً هو « المثنوى » . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الذى رشح لظهور الرباعيات فى الأدبين العربى والفارسى ، وهى تتألف من أربعة شطور ، تتفق أولها وثانيها ورابعها فى قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها ، من مثل قول بشار مازحًا مع جاريته ربابة[٧] :

ربابَةُ رَبَّةُ البَيْتِ تَصُبُّ الخَلَّ فى الزَّيْتِ
لها عَشْرُ دَجاجاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

ويروى أن حماد عجرد صاغ من هذا النمط الرباعى أشعاراً مزاوجة كان يقرأ بها الزنادقة من أمثاله فى صلاتهم[٨] ، ومما يروى من رباعياته غير الدينية قوله

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٧/٥٧ .
(٢) البيان والتبيين ١/٤٩ .
(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٧
(٤) الحيوان ٦/٤٥٥ .
(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .
(٦) أغانى (طبعة الساسى ٢٠/٨٧ .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٦٣
(٨) أغانى ١٤/٣٢٤ .